

طالبُ العلم والكُتُب

لفضيلة الشَّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعل هذه السنة لنا سنة خير وعلم وعمل وتقى وصلاح، وأن يزيدنا فيها من العلم النافع والعمل الصالح.

وأسأله -جل وعلا- أن يقوي هممتنا في العلم والعمل، وأن يُعَلِّي عزمنا في دَرَسِ العلم وتحصيله والمحافظة عليه والثبات على ذلك.

وكمقدمة لدروسنا في هذا الفصل -إن شاء الله تعالى- نتحدث كالعادة بحديث عام مما يَسْنَحُ في الخاطر بما يكون معه النفع إن شاء الله تعالى.

وحديثنا سيكون عن:

طالب العلم والكتب

من المعلوم أن العلم يُتَلَقَّى بأحد طريقين:

- إما عن طريق المشافهة والسماع ومجالسة أهل العلم وأخذ العلم عنهم سماعاً.
- وإما أن يكون عن طريق الكتب بالمطالعة والنظر والاستفادة.

والأوّل هو طريق الثاني، والثاني صوابه مبني على الأول، كما قال بعض أهل العلم: كان العلم في صدور الرجال، ثم صار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه في أيدي الرجال.

يعني أن طالب العلم الكتب له مهمة؛ ولكن هذه الكتب إنما يُحَسِّن التعامل معها ويحسن فهمها من أسس نفسه عن طريق طلب العلم على أهل العلم وخالطهم وفهم مراد أهل العلم بكلامهم فيما دونوه في الكتب.

التدوين -تدوين العلم- في الكتب قديم في الناس وكانت الحضارات السالفة لحضارة الإسلام كانوا يعتنون بالكتابة، وكانت كتب الله -جل وعلا- تكتب كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ: ٤٤]، وقال جل وعلا: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢]، وربُّنا -جل وعلا- خطَّ لموسى

عليه السلام في الألواح وكتب له فيها.

وبقيت الكتب في الناس يتداولونها بالكتابة، وكان من الأمور المهمة أن تحفظ من التغيير والتبديل، وأن يهتم بها الناس، وأن يحافظوا عليها.

وهذه المسألة عامة في الأمم، وكتب الله - جل وعلا - جعلها الله ﷻ ابتلاء وامتحاناً للأمم: هل يحافظون عليها أم لا؟ فحصل في الكتب قبل القرآن عدم المحافظة حيث دخلها التحريف في اللفظ ودخلها التحريف في المعنى بما هو معلوم، وخصَّ الله - جل وعلا - هذا القرآن وعلوم نبي الإسلام محمد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بالحفظ كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر]، والذكر هنا هو القرآن والسنة المبينة له محفوظة أيضاً، فالله جل وعلا حفظ القرآن وحفظ السنة، ومعنى ذلك أن هناك أشياء مما يكتب يطرأ عليه التحريف والتغيير والتبديل، فليس كل ما كتب يُعدُّ صحيحاً، وليس كل ما زُبر في الورق عُدَّ نافعا وصواباً؛ بل لابد أن يكون من العلم المحفوظ ويكون حفظه حفظ ألفاظه وحفظ معانيه أيضاً من التغيير والتبديل.

في أوائل هذه الأمة ما كتب من الصحابة السنة إلا نفر قليل، وهكذا فيمن بعدهم كتبوا أشياء؛ من التابعين كما هو معلوم في صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة وغيرها كتبوا أشياء من السنة، وحفظت أيضاً رسائل للمصطفى ﷺ إلى ملوك الأطراف وإلى عماله والأمراء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذلك حفظت رسائل للخلفاء الراشدين وللامراء من بعدهم ومراسلات الصحابة فيما بينهم، حتى جاء وقت تدوين العلم، فصُنفت المصنفات ودُونت وتوسع الناس في ذلك حتى صار التصنيف في كل أنواع العلوم، فصنف أول ما صنف في الحديث والسنة، ثم صنف في التفسير، ثم صنف في اللغة ومعاني القرآن، ثم توسعت التصنيفات والكتب.

لما كان الأمر كذلك العلماء أوصوا الطلاب بحفظ الكتاب من التغيير والتبديل؛ لأن الكتاب يكتب وينسخ، والنسخ والكتابة إذا كانت صحيحة فإن الكتاب يكون صحيحاً، وإذا كانت الكتابة غير دقيقة وكان النسخ غير دقيق دخل من الخلل في العلم من جهة عدم الدقة في الكتابة أو عدم الدقة في النسخ، ولهذا ذكر طائفة من الأدباء ومنهم الجاحظ في كتابه الحيوان وذكره غيره أيضاً أن من أهل العلم من كان يقتني من الكتاب الواحد ثلاث نسخ برواية واحدة وربما إذا تعددت الروايات أيضاً حرصوا أكثر على

اقتناء كل الروايات التي رُوي بها الكتاب، وهذا لأجل الحرص على دقة العلم ودقة تلقيه؛ لأنه ربما اختلف لفظ عن لفظ أو سقطت جملة أو تحرّف في موضع فبان في الموضوع الآخر.

أهل العلم أوصوا الطلاب طلاب العلم أن يحرصوا جدا على كتبهم؛ بأن يكون الكتاب محفوظا من التغيير والتبديل، وأن يكون التقييد عليه له آدابه، وأن يكون طالب العلم فيما يكتبه على الكتاب بعد نسخه من تعليقات ومن حواشٍ ومن فوائد ومن مطالب وأشباه ذلك أن يكون دقيقا فيما يكتب حتى يتسنى له أن يستفيد مما كتَبَ وحتى لا يتغير الكتاب بكتابةٍ في أثناء الأسطر وأشباه ذلك.

بهذا جعل أهل العلم في كتب الرواية وكتب طلب العلم جعلوا آدابا لطالب العلم في تعامله مع الكتاب، فالكتاب لطالب العلم أشبه ما يكون بأحد أعضائه، فكتب طالب العلم خلاياه التي يعيش بها، وهي سمعه وبصره الذي لو فقدته لضعف في العلم شيئا فشيئا، وترى أن الذي يضعف في المطالعة ويضعف في النظر في العلم وفي القراءة تجد أنه يضعف قليلا قليلا وينسى العلم شيئا فشيئا حتى يكون أميا بعد مر سنين من الزمان، وهذا لأن مطالعة العلم في الكتب من أهم ما يكون.

وهذا يتطلب أن يكون لطالب العلم صلة عظيمة بالكتاب، وهذه الصلة لها آدابها ولها رونقها ولها شروطها التي بينها أهل العلم في كتبهم ككتاب الجامع لابن عبد البر، وكتاب ابن جماعة في أدب الطلب «تذكرة السامع والمتكلم»، وكتب كثيرة في هذا ذكرها كيف يتعامل طالب العلم مع الكتب.

ونذكر من هذا أشياء، وقبل أن ندخل في الآداب العامة فإننا نذكر أن اهتمام طالب العلم بكتبه يدل على اهتمامه بالعلم.

فمن الآداب التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها:

ترتيب الكتب

أولا أن يرتب كتبه حتى يتسنى له أن يراجع، إذا كانت مسألة تحتاج أن يراجع لها بعض الكتب فلا بد له من أن يرتبها.

وترتيب الكتب بحسب حال هذا الطالب، فإذا كان يحتاج أن يرتب كتب التفسير جميعا وكتب الحديث جميعا ويصنف التفسير إلى علومه والحديث إلى علومه والفقهاء إلى مذاهبه وأشباه ذلك، فلا بأس، وإذا كان يرى ثمة ترتيب آخر يرى أنه أنفع له فلا بأس.

المقصود أن يكون الكتاب في مكانه الذي إذا احتاجه طلبه.

والكتب على قسمين: كتب كبيرة وكتب رسائل صغيرة.

أما الكتب الكبيرة: فهذه سيراها في المكتبة لأنها كبيرة عشر مجلدات خمسة عشرة مجلدا وثلاثة أو أربعة هذه ظاهرة.

ولكن الذي يحتاج إلى العناية به الرسائل الصغيرة التي هي مهمة وربما يكون فيها من العلم ما ليس في الكتب الكبار، إذا احتاج أن يراجع كتابا منها أو رسالة فبحث عنه لا يجده، لم؟ لأنه ما وضعه في مكانه المناسب.

وهذه الرسائل الصغيرة ينبغي أن يهتم بها في أن تكون في مكان مستقل؛ يعني أن لا تكون ضمن البحوث أو ضمن الكتب الكبيرة، فيضع كتاب كبير وبجنبه كتاب صغير عبارة عن أوراق وبجنبه رسالة أربعين صفحة أو خمسين صفحة إلى آخره.

وهذا النوع اعتنى به العلماء حيث وضعوا له ما أسموه بالمجاميع، ترون في فهارس المخطوطات بما يسمى مجموع، المجموع عبارة عن مجلد أو أكثر فيه عشر رسائل أو فيه اثنا عشرة رسالة أو أكثر من ذلك، فإذا تهيأ لطالب العلم أن يجمع هذه الرسائل الصغيرة في مجموع ويجمع النظائر في مجلد، يجعل الرسائل التي في أداء طلب العلم في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في مصطلح الحديث الصغيرة في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في علوم التفسير أو علوم القرآن يجعلها مجموعة أو ما أشبه ذلك، كذلك الكتب والرسائل الفقهية يجعلها مستقلة، ومن المناسب في الكتب والرسائل الفقهية أن يوبّها على حسب أبواب الفقه، مثلا يجعل رسالة في الجنايات في موقعها في الفقه، فيرتب الكتب يتدّى بالرسائل التي في الطهارة، ثم الرسائل التي في الصلاة، ثم الصلاة أيضا يرتبها أيضا في داخلها شروط الصلاة أولا، ثم الأحكام التي فيها، ثم سجود السهو يجعلها في مكانها، التي في الزكاة أيضا يجعلها بعد الصلاة، وهكذا في نظائرها؛ يعني أن يرتب هذه الرسائل الصغيرة التي قد لا يصل إليها لو احتاج في خضم كتبه أن يرتبها بحسب موضوعات الفقه، كذلك غيرها من العلوم في التاريخ أو في العقيدة أو ما أشبه ذلك، يجعل العقيدة العامة مستقلة في الكتب أو الرسائل العامة في العقيدة، أو التي تبحث في مسألة في العقيدة يرتبها على مباحث في العقيدة حتى يتسنى له مراجعة ذلك.

إذن أول أدب أن يحسن الترتيب، والترتيب -ترتيب المكتبة- هو عنوان طالب العلم في عنايته بكتبه.

أما إذا أتى وكان المكان متيسرا ووجدت أن الكتب مبعثرة إلى آخره فهذه لها أحد احتمالين:

إما أن يكون من كثرة بحثه وكثرة مطالعته للكتب جعلها تنتشر، وهذا أمر محمود ولكن لابد أن يكون بعدها يرجعها إلى ترتيبها.

وإما أن يكون هو أصلاً غير مرتب.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه في قضاة مصر الذي سماه «رفع الإصر عن قضاة مصر» ترجم لأحد قضاة مصر حيث تولى القضاء، وكان يجلس في مكان فيه كتبه وكانت كتبه حسنة التصنيف مصفوفة بطريقة جميلة، فدخل عليه أحد الناس من طلاب العلم، وقال له: ما أحسن تصنيف هذه الكتب. قال الحافظ ابن حجر يعرض به أن حسن تصنيف الكتب يدل على عدم المطالعة فيها وعدم الاشتغال، ففهم القاضي هذا وأسرّها في نفسه، قال: حتى تولى هذا الرجل الذي انتقد القاضي تصنيف كتبه، قال: تولى الكتابة للناس في أنكحتهم -يعني عقود النكاح وما يسمى مأذون الأنكحة- فعثر منه القاضي على غلطة في أحد صكوك النكاح، قال: فعزّره تعزيراً بليغاً حافظاً تلك الكلمة.

المقصود أنه استدل بحسن التصنيف على عدم الاشتغال وهذا ليس بمطّرد؛ بل طالب العلم إذا أراد أن يشتغل بفن أو يبحث فيجلب عدد من الكتب تكون أمامه ويبحث هذا في هذا وإذا انتهى منها أرجعها في أماكنها حتى يتسنى له أن يطالعها.

الاهتمام بالنسخ المصححة

الأدب الثاني من آداب التعامل مع الكتب: أن يهتم طالب العلم بالنسخ المصححة.

في القديم كان الكتاب يُشترى من الوراقين، يقال: فلان وراق؛ يعني عنده مكان ينسخ فيه الكتب ويبيعها، أو يبيع لمن أراد أن يبيع كتبه، يسمى هؤلاء الوراقون الذي يعتنون بنسخ الكتب باليد أو بيع الكتب.

وهؤلاء الوراقون منهم المعنّي ومنهم غير المعنّي، وأشبه ما يكون في هذا الزمن بالمطابع، المطابع الموجودة الآن هي ورثت عمل الوراقين فيما مضى من الزمان.

لهذا نقول: إن صنعة الوراقين فيما مضى تناولها أهل العلم بالتحليل، وأن طالب العلم يحرص على أن يشتري كتاباً مصححاً مدققاً، أو أن ينسخ بيده ويقابل ما نسخ بأصله، أو أن يشتري كتاباً ويقابله بنسخة معتمدة مقروءة على أهل العلم، وأشبه ذلك.

يعني أن طالب العلم مع الكتب لابد له من أن يعتني بالنسخ الصحيحة في النسخ المخطوطة أو في

المطبوعات.

وفي هذا الزمن عناية جل طلاب العلم بالمطبوعات.

ولهذا نقول: المطبوعات كثيرة وقد ابتدأ بالطباعة باللغة العربية منذ أكثر من خمسة قرون -يعني منذ أكثر من خمسمائة سنة- ابتدأت الطباعة بالعربي يعني من نحو سنة ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ بالميلاد لأنها هكذا أرخت يعني من نحو خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة وزيادة، وأكثر ما طُبِع في اللغة العربية في البلاد العربية والإسلامية منذ نحو مائتين سنة من الزمان، وما قبل ذلك تطبع في بلاد الغرب لاهتمامهم بالطباعة.

المقصود من هذا أن الكتب طباعتها قديمة، واليوم الذي يُطرح في السوق أنواع من دور النشر، وأنواع من الكتب، وأنواع من أسماء المحققين أو أسماء المصححين إلى آخره.

ولهذا حصلت مرّات أنه تُنقل عبارات وجمل عن كتب مطبوعة مؤخراً تكون طباعتها غير صحيحة وغير دقيقة فيقع الخلط كما حصل لي مثلاً عدة مرات في قاعات الجامعة من أي أقرر شيئاً مثلاً بناء على نسخ مطبوعات الصحيحة ويأتي بعض الطلاب مجتهداً ويبرز الكتاب الذي طبع مؤخراً فإذا الكلام الذي فيه غير صحيح؛ لأن الطباعات المتأخرة ليست كلها مُعْتَنَى بها، وهكذا الطباعات المتقدمة.

إذن فالمطبوعات سواء منها طبع منها قديماً أو ما طبع حديثاً لا بد لك من البحث هل هذه الطبعة صحيحة، وإذا أردت أن تعتني بشراء كتاب أو أن تعتني بعلم ما فلا بد أن تحصّل الكتب الصحيحة المطبوعة بدقة فيه، فتسأل أهل العلم أو الذين يعتنون بهذا الجانب، فتقول مثلاً: الكتاب الفلاني ما النسخة المعتمدة منه؟ مثلاً تقول: «تفسير القرطبي» ما أصح نسخه؟ «تفسير الطبري» ما أصح نسخه؟ «صحيح البخاري» ما أصح نسخه التي تقتنيها؟ وتكون عندك في المكتبة ما تحتاج معها إلى نسخة أخرى.

الملاحظ اليوم أنه مع كثرة المطبوعات تجد أن دور النشر تطبع لغرض التجارة بطبعات لا تأمنها، لهذا ينبغي لك أن تسأل عن الطبعة التي تقتنيها أو الطبعة التي تريد شراءها، ولا تشتري أي كتاب طرح أمامك؛ بل تسأل عنه وتعرف دار النشر التي أصدرته، وإذا كان اعتنى به أحد المحققين، تسأل هل هذا المحقق دقيق أو غير دقيق أو غير دقيق؟ هل هو تجاري أو غير تجاري؟ إلى آخر ذلك، يعني أن اهتمام طالب العلم بالنسخة الصحيحة التي يقتنيها لا بد منه.

تشتري مثلاً كتاب بعد السؤال عنه، تقول مثلاً: «تفسير القرطبي» النسخة الصحيحة منه ما هي؟ فإذا أجبت عن هذا السؤال ذهبت وتقتني هذه النسخة سواء كانت مطبوعة أو مصورة أو مطبوعة طبعا حديثا بالكمبيوتر؛ يعني أن تحرص على النسخ الصحيحة.

الملاحظ - من جهة نظري - أن ما بأيدي الإخوان من الكتب أن كثيرا منها يكون نسخا غير صحيحة تكون نسخة لكن غير دقيقة اعتنى بها أحد الناس عناية لا تسمى عناية، أو يقال: إنها صححت بمعرفة الناشر أو ما أشبه ذلك، ويكون فيها من الأغلاط والسقط وأشباه ذلك ما يعيبها، ولا يصلح أن تقتنى لطالب علم يرجع إليها ويبحث من خلالها.

إذن فالأدب الثاني أن يحرص طالب العلم على اقتناء النسخ الصحيحة سواء كانت مطبوعة طبقات قديمة أو كانت مطبوعة حديثا، المهم أن تكون نسخة صحيحة، فيعرف دور النشر المعتمدة الدقيقة ودور النشر التي لا تعتني حتى يميز، يعرف المحققين الذين يتاجرون والمحققين الذين يعتنون بتحقيقاتهم، ويعرف أيضا مزايا الطبقات وتعدد الطبعة للكتاب الواحد وميزة هذه على هذه.

نتفرع من هذا إلى أن طالب العلم الذي يعتني برؤية التحقيقات وما يعمل المتأخرون من حواش وتعليقات، لابد له أيضا أن يعرف أيضا طبقات الكتاب؛ لأنه حصل مثلاً أن المحقق يرجع إلى جزء وصفحة فهذا يظن أن الكتاب طبع مرة واحدة، فيذهب ويرجع إلى الجزء والصفحة هذه فلا يجده، فيقول أن هذا وهم أو غلط أو نحو ذلك، قد يكون الكتاب طبع مائة مرة أو عشرين مرة أو ثلاثين مرة أو خمس أو أربع إلى آخره.

فإذن معرفة طالب العلم بطباعة الكتب، وعدد مرات طباعتها، وميزة هذه وهذه، هذا أيضا من مكملات العلم ومن ملحه التي هي من الآداب العامة التي ينبغي لطالب العلم العناية بها.

الحرص على نظافة الكتاب وطريقة حفظه

الأدب الثالث مع الكتب الحرص على نظافة الكتاب وطريقة حفظه؛ يعني أن يكون الكتاب نظيفا ليس عليه غبار يعلق به، أو يكون متسخا، أو أن يكون عليه كتابات سيئة، أو أن يكون يضعه في موضع غير لائق به؛ يعني أن يضع الكتاب فيما يكون لائقا به.

فمما لا يليق بالكتب خاصة كتب أهل العلم التي فيها بيان معاني الكتاب والسنة أن تكون عليها الأتربة أو أن تكون متسخة، تنظيف الكتب هذا دليل توقير ما اشتملت عليه وتعظيم شعائر الله، وقد قال جل

وعلا: ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج]، فإذا كان الكتاب في التفسير أو كان في السنة أو كان في فقه الحلال والحرام أو في العقيدة فإن النفس تنبعث في المحافظة عليه وفي تنظيفه من إجلال الله - جل وعلا - وإجلال العلم الشرعي الذي هو مأخوذ من الكتاب والسنة.

كذلك أن يكون طالب العلم في تعامله مع الكتاب من جهة صيانتته وحفظه بأن لا يتخذه صندوقاً لأوراقه ورسائله الخاصة أو الفواتير التي تكون عنده - فواتير الكتب أو نحو ذلك -، فتأخذ ونظر كتاباً فتجد أن فيه فاتورة أو رسالة أو فيه قلم أو في داخله محاية إلى آخره.

وقد قال بعض العلماء: لا تجعل كتابك بوقاً ولا صندوقاً.

هذا من الأدب المهم مع الكتاب لا تجعله صندوقاً يعني أن تجعل فيه الأقلام وتجعله مستودعاً لفلوس والريالات؛ يعني تفتح الكتاب تجد فيه كل هذا، ثم تلاحظ أن الجلد تغيرت والكتاب تغير إلى آخره من جرّاء الصيانة.

كذلك لا تجعله بوقاً يعني لا تلف الكتاب لفا لا يليق به، يعني مثل هذا الكتاب تجد أن بعضهم يلف الكتاب كذا ويأخذه وأحياناً يجعله كأنه بوقاً، فهذا لا يليق؛ لأن الكتاب فيه كلام الله - جل وعلا - وكلام رسوله ﷺ فلا يليق أن يجعل بهذه المثابة.

كذلك لا يليق أن يوضع عليه كأس ماء أو شاي وما أشبه ذلك.

كتب أهل العلم التي فيها نصوص الكتاب والسنة تجعل أعلى ما تجعل أسفل تجعل فوقها دفاتر بيضاء وأشبه ذلك.

وهذا مما يجعل في القلب تعظيماً لكلام الله - جل وعلا - وكلام رسوله ﷺ، وكل ما استفيد من العلوم من هذين الأصلين.

كذلك مما يتعلق بحفظ الكتاب أن ينتبه طالب العلم في طريقة الكتابة على الكتب، أحياناً نرى بعض الكتب يُعلق عليها حواشي بحيث أنه تضيع فائدتها، وقد نهى العلماء فيما سبق عن الخط الصغير على الكتب، أن تُكتب الكتب بخط دقيق أو أن يُعلق عليها من الفوائد ما يكون بخط دقيق، بحيث إذا أراد طالب العلم لم يتهياً له أن يستفيد منه.

وندم - فيما يذكر - الإمام أحمد مرة على أنه كتب حديث بخط دقيق لما احتاج لها في كبره لم يحسن

أن يستخرج تلك الفوائد؛ لأنها كانت بخط صغير وتقارب الحبر مع بعضه حتى فاتت الفائدة. بعض العلماء لا يكون خطه حسناً أو بعض طلاب العلم لا يكون خطه حسناً هذا ليس بعيب؛ لكن أن يرتب الكتابة بحيث أن تكون بخط واضح، لهذا كان بعض العلماء ممن خطه غير جيد هو نفسه لا يحسن قراءة خطه مثل شيخ الإسلام ابن تيمية كان هناك أحد طلابه هو الذي يستخرج كتابه، وقد ذكر هذا في التراجم ونبه عليه الحافظ ابن كثير في الجزء الرابع عشر من «البداية والنهاية» في سنة وفاة تلميذ شيخ الإسلام ونسيت اسمه الآن،^(١) قال: وكان هو الذي يحسن استخراج خط ابن تيمية، وإذا أراد ابن تيمية أن يأخذ موضعاً لا يستخرجه إلا هو. لأن شيخ الإسلام يكتب بسرعة ويشتهر، ربما التبس عليه، ولكن هذا من دقته يحسن ذلك، ولكن هذا قد لا يتهياً دائماً.

ولهذا طالب العلم يحتاج إلى معرفة كيف يكتب على الكتب بنه علماء الحديث في آداب الكتابة أن طالب العلم إذا أراد أن يكتب: فيبتدئ في الكتابة من السطر الذي فيه أو عليه التعليق، ثم يرتفع إلى أعلى ولا ينزل إلى أسفل؛ يعني قرأت على شيخ أو تعلق على كتاب فأنت إلى موضع فتبدأ بالكتابة من هذا السطر إلى أعلى؛ لأنه ربما أتى في السطر الذي بعده فائدة تحتاج إلى الكتابة عليها فالتبس عليك، كيف تكتب تعرج عليه، وإذا كتبت إلى أعلى فحبذا أن تكون الكتابة واضحة وفيها نوع ميول متساوي الأسطر، حتى إذا احتجت إلى ضبط يمكنه إدخاله في الفراغات في ما بيت الميول.

ربما بعضكم رأى بعض الكتب القديمة المحشاة فتجد أن الكتابة أتت على شكل مثلثات هذا ليس عبثاً لكنه لأنه يكتب بهذه الطريقة على طريقة الأقدمين لأنه قد يحتاج إلى ضبط بعد ذلك فيدخله في هذا الفراغ، أو أن يقابل هذا الكتاب بنسخة أخرى فيقول في هذا الفراغ نسخة كذا وكذا وهكذا. فإذا نهم بوضوح الخط وبأن يكون مرتباً في معرفة مكان البداية، فإذا أتيت إلى ما كتبه أنت وعلقته اعرف أن هذه الجملة التعليق عليها سيكون عليها في هذا الاتجاه.

وحبذا لو راجعتم كتب المصطلح قد بينوا كيف تكتب وتحشي على الكتب، في ضوابط لهم وتفصيلات سواء كانت في التضييظ - يعني بيان الكلمة والتصحيح عليها - أو كانت حاشية أو بيان نسخة

(١) قال ابن كثير في (ج ١٤ / ص ١٩٤): وفي هذا اليوم - أي يوم السبت يوم عرفة من سنة ٧٤٩ هـ - توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه على الشيخ استخرجه أبو عبد الله هذا، وكان سريع الكتابة لا بأس به، دينا عابداً، كثير التلاوة، حسن الصلاة، له عيال، وعليه ديون، رحمه الله وغفر له أمين.

أو كيف تكتب صحة العبارة أو ما أشبه ذلك، فنحيلكم على كتب المصطلح لأنهم كتبوا في هذا وأوفوا المقام.

انتخاب الفوائد من الكتب

من آداب الكتب أيضا التي ينبغي العناية بها أن يكون طالب العلم له فوائد ينتخبها من الكتاب؛ يعني أنه إذا قرأ كتابا لا يثق بحافظته وذاكرته ولو كان شابا، بل فوائد هذا الكتاب ينتخبها في دفتر خاص عنده، أو يشير إليها في بداية الكتاب في ورقة في أوله بأن يضع شيئا بالفهرس له؛ لأن هذه الفوائد التي تناسبك قد لا تناسب شخصا آخر، تحتاج أنت إلى أن تراجع ما استفدته من هذا الكتاب.

وقبل ليلتين كنت قرأته منذ نحو عشر سنوات فلما نظرت في أوله أخذته من مكانه في المكتبة - وهو كتاب لجمال الدين القاسمي «الفضل المبين في شرح الأربعين» - وإذا بي قد قرأت الكتاب وذكرت الفوائد التي فيه، فإذا بها فوائد كثيرة تسعين في المائة منها نسيته فبدل أن أقرأ الكتاب مرة أخرى فإذا هذه فائدة وهذه فائدة وهذه فائدة.

ومنها مثلا من الفوائد التي كانت فيه الفرق ما بين العالم والعارف ولم عدل الصوفية عن العالم إلى العارف؟ لماذا يقولون: العارف فلان، لا يقولون: العالم؟ هذا من فوائده.

من الفوائد أيضا نقلا كان جيدا ومتينا عن ابن حزم في الفصل في معنى قضى وقدر، وقال في آخره جمال الدين القاسمي لما أتم النقل وهذا ألطف ما قيل في معنى قضى وقدر أو القضاء والقدر وأحقه بالقبول. وهو كما قال، ربما نذكره لكم في مكانه.

هذه الفوائد التي تكتبها في صدر الكتاب مهمة إذا راجعت بعد حين تجد أن الفوائد معك.

يعني أن الكتاب إذا قرأته أو أن الكتب إذا قرأتها فتتخبط منها ما تراه مفيدا لك وتجعله في صدر الكتاب في الورقة الأولى على شكل فهرس فيه عبارة مختصرة.

وهذا لاشك أنه مهم جدا لطالب العلم إذا حصل أن تجعل له دفترا خاصا تنتخب فيه ما تحتاجه فهذا مهم وسترجع إليه ولا بد بعد زمن.

يعني لا يناسب أن تقرأ هكذا وتقول: هذه القراءة كافية لأنك بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة أو سنة تنسى؛ لكن لو قيدت فإنك سترجع إليه بعد سنين تجد أن الفوائد ماثلة أمامك. وكما قيل: الفهم عرض يطرأ ويزول والكتابة قيد. تقيد ما فهمته أو تقيد ما استفدته.

أدب إعارة الكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أدب الإعارة.

والإعارة للكتب منهي عنها إلا لمؤتمن عليها؛ لأن كتابك أنت أولى الناس به، إلا إذا وجدت من هو حريص على هذه الكتب وإذا استفاد منها أرجعها.

وذكر في ترجمة الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ أَنْ رجلا طلب منه أن يعيره كتابا فقال: لك ثلاثة أيام. فقال: قد لا تكفي. قال: قد عددت أوراقه، فإن احتجت إلى نسخه فالثلاثة كافية، وإن احتجت إلى قراءته فالثلاثة كافية، وإن كنت تريد أن تستكثر به فأنا أولى بكتابي.

وهذا صحيح فيه كتاب الجزء الأول كتاب كبير عندي - ما أريد أن أذكره ربما فيسمعه هذا فيظن أنه تعريض به - الجزء الأول من كتاب من ثمانية مجلدات استعاره أحد الإخوة وإلى الآن من اثني عشر سنة ما وصلني، وهو يقول: ما أدري أين ذهب. وأيضا الجزء الثامن من كتاب آخر والكتاب ربما لا آسف عليه كثيرا ولكن الجزء الثامن منه له أكثر من عشرين سنة إلى الآن ما رجع، ولذلك قال القائل:

لا تعيرون كتابا _____ واجعل العذر جوابه
من أعارن كتابا _____ فلعمري ما أصابه
وقال آخر: آفة الكتب إعارتها.

وقيل لرجل في الهند كَوْن مكتبة عظيمة قيل له: كيف كونت هذه المكتبة؟ قال: من استعارة الكتب. قال: كيف؟ قال: أستعير كتابا فلا أردّه، وتكونت هذه المكتبة. فقيل له: أليس هذا جناية على من استعرت منهم؟ قال: من أعار الكتاب فهو مجنون، ومن رد ما استعار فهو أكثر جنونا منه.

وهذا لأن الكتاب النفوس متعلقة به، فقد ذكر الحافظ ابن رجب في مسألة في كتاب القواعد ضمن قاعدة: أن الكتب لا قطع في سرقته؛ يعني إذا سرق كتابا فعند بعض العلماء لا يقطع؛ لأن فيه شبهة أن الحق في الكتاب للجميع.

لهذا قد يأخذ بعض طلبة العلم مثلا أو بعض الزملاء كتابا ويرى أن له حقا فيه، خاصة إذا كان وقفا أو كان مهدى إليك أو ما أشبه ذلك فيتساهل فيه ثم تخسر أنت الكتاب.

فإن كنت لا تعلم أن هذا الذي جاء يطلب الإعارة جاد وسيستفيد منه في أيام يسيرة وليال وإلا فلا تُعَر الكتاب؛ لأن في إعارته حرمانك من الاستفادة، وليس كل مستعير للكتاب مأمونا على الكتاب، فكم

استعار أناس وما ردوا الكتب.

استعراض الكتب بين حين وآخر

أيضا من الآداب المتعلقة بالكتاب - الحديث ذو شجون ويطول - من الآداب المتعلقة بالاهتمام بالكتب أن يستعرض طالب العلم كتبه بين حين وآخر؛ يعني أن لا يجمع الكتب دون استعراض لها، يأتي أخذ الكتاب ووضعها وأخذ الكتاب ووضعها وأخذ الكتاب ووضعها، ثم إنما يراجع طائفة قليلة منها، لا بد من استعراضها، تأتي وتستعرض هذه الكتب حتى تذكر الموضوعات، لأن من الناس من اشترى الكتاب مرتين وثلاث وأربع؛ لأنه ينسى أن الكتاب عنده لقله استعراضه لكتبه، ولو أنه كثير الاتصال بكتبه خاصة في مثل بلادنا مكتبات بعض الطلاب - طلاب العلم - كبيرة إذا استعرض كتبه تذكر أن الكتاب عنده، أما إذا ترك الاستعراض ربما طلب الكتاب من غيره وهو عنده أو نسي ما في الكتب أو تابع لموضوعه ولم يراجع فيه إلى آخره.

الاهتمام بالكتب الموقوفة

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتب الاهتمام بكتب الوقف. والكتب الموقوفة يعني التي عليها طبع أنه وقف أو ختم بأنها موقوفة أو أشباه ذلك هذه الاحتفاظ بها في مكتبك لا بد أن يكون على شرط الواقف، والواقف حين وقفها جعلها على طلبه العلم، وإذا كنت لا تستفيد من الكتاب وغيرك بحاجة إليه فدفعت الكتاب إلى من يحتاجه أولى، نعم قد يكون لك حاجة فيه ولو مرة في السنة تراجع فيه فهذا لا بأس؛ لأن الكتاب موقوف على طلاب العلم؛ لكن إذا كنت لا تراجع تمر عليك أربع خمس سنين وأنت لا تراجع تعرف نفسك ليست ذات همة في مراجعة هذا الكتاب أو الكتب بعامة أو قد لا تحتاجه في المستقبل فإن الاحتفاظ به في هذه الحال خلاف الأولى، وبعض أهل العلم يقول لا يجوز الاحتفاظ به يل يدفع إلى مستحقه يدفع إلى من ينتفع به؛ لأن الواقف وقفه على من ينتفع به وإذا كنت لا تنتفع به فمن ينتفع به أولى.

ومن هنا كان كثير من طلاب العلم من يتنزه عن الاحتفاظ بالكتب الموقوفة إذا كان عنده فضل مال يمكن أن يحصل الكتاب ببذل ماله لأنه ربما يركن الكتاب ولا يستفيد منه، فإذا كان موقوفا ربما لحقه إثم من حبسه عن من ينتفع به، وهذا ربما ظهر أكثر في البلاد التي يكون الكتاب فيها شحيحا.

العناية بالكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أن يهتم في الكتاب بتجليده وبطانته وبهارته حتى يكون الكتاب بالوضع اللائق به للاستمرار؛ لأنّ طالب العلم حين يقتني الكتاب، نقول: الأفضل له أن يستحضر نوعين من النية:

أما الأول أن ينوي الانتفاع به في تخليص نفسه من الجهل.

والثاني أن ينوي أن يستفيد غيره من هذا الكتاب إما أهله وولده وإما من يكون عنده أو أن يوقف الكتب بعده أو أن يبذلها لغيره بإهداء أو أن يبيعها إلى آخره.

وهذا يعني أنه كلما اعتني بالكتاب من جهة جلده والمحافظة عليه بما يبقى أكثر في المستقبل كلما كان ذلك أكثر في الأجر والثواب.

ومن عجائب التفريط في الكتب ما ذكره القفطي صاحب كتاب «إنباه الرواة»^(١) -ربما ذكرته لكم مرة- في قصته مع كتاب الأنساب للسمعاني كان حريصا على الكتب جدا وجمع مكتبة من أنفس ما جُمع، قال: عُرِض علي كتاب الأنساب للسمعاني بخط مصنفه الأجزاء الثاني والثالث والرابع، والأول مفقود بخط مؤلفه السمعي، وبين القفطي والسمعاني نحو ٢٥٠ عاما أو قريبا منها. فاشترى هذه الثلاثة، قال: اشتريتها فلما مضى مدة من الزمن وهو سأل عن الكتاب عن الجزء الأول وسأل فظن أن فقد وانتهى، وبخط المصنف عُرِضَ إلى أنه أعير ففقد، أو أنه ضاع أو إلى آخره. قال: فمرة جاءني خادمي جاءه خادمه بسرّة من بُقُول وقد لُفّت بورق كتاب، قال: فأخذت الورقة قبل -يعني البقول ما له قيمة عنده بالنسبة لهذه الورقة، فلما نظرت إليها فإذا هو خط السمعي الذي أعرفه فأتيت بنسخة الأنساب فإذا هذا الورق من الجزء الأول المفقود.

قال: فذهبت سريعا إلى الذي يبيع البقول فوجدت عنده بعض أوراق بقيت من هذا، فقلت له: أين بقية هذه الأوراق؟ قال: لفنا بها البقول وتفرقت في البيوت. فقال: إنا لله وإنا لله راجعون، مأساة، مصائب قوم عند قوم فوائد.

(١) «إنباه الرواة على أنباء النحاة»، كتاب يُعدُّ من أهم المصنفات التي تناولت تراجم علماء العربية. ألفه أبو الحسن، جمال الدين بن يوسف القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ، ١١٧٢ - ١٢٤٨ م). والكتاب معجم شامل لتراجم أعلام اللغة والنحو منذ القرن الأول الهجري وحتى زمان المؤلف، منتصف القرن السابع الهجري. وهو كتاب كبير يمتاز بسداد المنهج وجودة التصنيف وغزارة المادة.

هذا يأسى على فقده، وذلك فرح لأنه وجد هذه الأوراق التي لا قيمة لها بخط الحافظ السمعاني يلف بها البقول ويعطيها الناس. قيل: فأقام مناحة شهراً من الزمان على العلم وأهله وعلى كتاب «الأنساب» للسمعاني.

نريد من هذا نقول: إن الكتب لا بد من العناية بها من جهة تجليدها من جهة حفظها، هذا وجدها مفرقة أن تتفرق الأوراق وأن تضيع؛ لكن لو كانت محفوظة مضمومة بعضها إلى بعض، فكان ذلك أدعى إلى استمرارها في مكتبتك.

والمسائل المتعلقة بذلك كثيرة لعل فيما ذكرنا تنبيهاً على بعض ما يحتاج إليه.

أسأل الله -جل وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد والصلاح والرشاد.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

ننبه إلى أن هذا الأسبوع عندنا درس الخميس -إن شاء الله- الصباح بعد صلاة الفجر ودرس يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، درس يوم الخميس هنا ودرس العشاء في «فتح المجيد» في مسجد الأمير عبد الرحمن بن عبد الله الذي هو قريب.

وبالنسبة لدرس الاثنين الزاد هذا الأسبوع ما يكون عندنا شيء ونبهم الأسبوع القادم إن شاء الله على ما يجد في ذلك.

وليلة الأحد نكمل «كشف الشبهات» إن شاء الله تعالى.

الخميس الصباح في الكتب التي كنا نقرأ فيها.

والجمعة مساء بعد العشاء في كتاب «فتح المجيد» في أواخره لعلنا ننتهي منه إن شاء الله في الأسابيع القادمة.

هذا وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.